علي عزت بيجوفيتش

وكتابه "الإسلام بين الشرق والغرب"

بقلم
محمـــد يوســـف عــدس

ملاحظة:

✍ **المقال كتب بعد عام فقط أو يزيد من الحرب على "البوسنة والهرسك".**

1- علي عزت بيجوفيتش.. الرئيس المجاهد:

على مدى عام أو يزيد ابتداءً من يوليه 1992 ومأساة البوسنة والهرسك تستأثر بأولوية في الإعلام العالمي، فمن منّا لم يسمع بأهوال العدوان الصربي الوحشي على شعب البوسنة الأعزل؟ ومن منا لم يسمع بأعمال التطهير العرقي واغتصاب الأرض والعرض.. ومعسكرات التعذيب؟ ومع ذلك نادراً ما كنا نشاهد «علي عزت بيجوفيتش» يظهر على شاشة التلفزيون وهو رئيس الدولة المُغتصبة وقائد المقاومة المستميتة. وعندما يظهر الرجل – لحظات خاطفة – في نشرات الأخبار نلمح إنساناً مثقلاً كأنه يحمل على عاتقه جبلاً من الهموم. ولكننا لا نملك إلاّ أنْ نعجب كيف أنّه لا يزال قوياً متماسكاً لم يتحطم .. لقد عاش المآسي والكوارث التي تنقضُّ على شعبه ووطنه ليلَ نهار، وهو نفسه محاصر في مدينة سراييفو بمدفعية الصرب وقنّاصتهم يحدّقون بالمدينة على قمم الجبال، وقد تمزقت المدينة وتقطعت فيها شرايين الحياة فلا طعام ولا ماء ولا كهرباء. وتحول إستاد سراييفو – الذي احتضن الألعاب الأولمبية الشتوية يوماً – إلى مقبرة كبرى تضم رفات آلاف الضحايا من المسلمين الذين سقطوا صرعى في المجازر الصربية الهمجية.

صلابة علي عزت:

كان للرجل أمل في أن ينهض المجتمع الدولي بواجبه في إنقاذ شعبه الأعزل أو على الأقل يرفع عنه حظر التسلح حتى يتمكن من الحصول على سلاح يدافع به عن نفسه ضد الغزو والعدوان، ولكن يطول انتظاره ولا يأتيه من الأخبار في كل يوم إلا أسوأها: فموقف الأمم المتحدة هزيل مُخز، وموقف الولايات المتحدة سلسلة من التشنجات والتراجعات المهينة. وأما موقف أوروبا، فأقل ما يوصل به إنّه موقف متحيز خسيس. فالمأساة تقع في قلب أوروبا والحقائق تقع أمامها صارخة مزلزلة .. ولكن أوروبا لا تحرك ساكناً لرد العدوان، وإنما تتوالى

تصريحات ساستها بأن دولهم لن تتدخل في الصراع وكأنهم يقولون للصرب: افعلوا إذن ما يحلو لكم.

قاومت بريطانيا مستميتة كل دعوة أو مبادرة لتسليح المسلمين بحجة أن ذلك يطيل أمد الحرب ويزيد من إراقة الدماء .. وكأنها تقول: دع المسلمين عُزلاً من السلاح يائسين حتى يتم قتلهم بسرعة وسهولة، فإذا أُبيدوا ينتهي الصراع وتزول المشكلة. وهكذا تقف الحضارة الغربية عارية مجردة من كل مزاعمها الإنسانيّة والأخلاقية، وينكشف وجهها القبيح أمام الألم.

إن (علي عزت) لا يعيش فقط مأساة شعبه الدامية ولا تحاصره مشاعر الإحباط المتصل بسبب المواقف الدولية المتخاذلة تجاه قضية بلاده العادلة، ولكن بالإضافة إلى كل ذلك يتعرض لمحاولات تستهدف تحطيم شخصيته وتمزيق نسيجه النفسي وسحق صلابته وشموخه واعتزازه بفكره ودينه وشعبه. وللأسف الشديد لا تأتيه هذه المحاولات من قبل أعدائه الظاهريين من الصرب والكروات فحسب وإنما تأتيه بصفة خاصة من خلال المفاوضات في قصر الأمم المتحدة، وبواسطة خبراء في المكر السياسي والدبلوماسي من أمثال لورد «كارنجتون» ولورد «أوين» وغيرها، وهم أناس جعلوا أكبر همهم أن يروا علي عزت ينهار مستسلماً لضغوطهم فيوقّع على وثيقة موته ونهاية دولته وتحويل شعبه إلى شراذم من اللاجئين المشردين. وعندئذ تنحل عقدة المجتمع الدولي ودول أوروبا بصفة خاصة .. فلن تكون في حاجة إلى سحب اعترافها السابق بدولة البوسنة والهرسك التي لم يعد لها وجود.

كانت هذه الظروف المأساوية جديرة بتحطيم أقوى الرجال، ولكن علي عزت ظل صامداً متماسكاً متوازن العقل صحيح النفس، وهو أمر يثير الدهشة ويبعث على التساؤل.. ولكن لعل دهشتنا تزول إذا عرفنا طرفاً من حياة الرجل وفكره كما يتمثل في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب"، فهذا الكتاب يمدنا برؤية داخلية كاشفة لشخصية مؤلفه وسماته النفسية والأخلاقية.

عاشق الحرية:

قضى (علي عزت) فترات طويلة وراء قضبان السجون – في دولة يحكها نظام شيوعي دكتاتوري – بسبب أفكاره التي لا تنسجم مع فكر النظام، الذي لا يقبل من رعاياه أقل من التسليم الكامل والتبعية المطلقة فلا يرتفع فكر ولا رأي آخر ما عدا فكر الدولة ورأيها. ولم يكن علي عزت من النوع الذي يتنازل عن جوهر إنسانيته الذي يتمثل في حرية الاختيار وحرية الفكر والتعبير. وسنجد أن فكرة الحرية الإنسانيّة محور أساسي هام من المحاور التي تدور عليها الموضوعات التي تصدّى للكتابة فيها. ومما له دلالة نفسية على موقف المؤلف الخاص أنّه عالج هذه الفكرة في علاقتها بالدكتاتورية والنظم الشمولية في أكثر من موضع وانتهى من تحليلاته إلى أن هذه النظم غير ممكنة، بمعنى أنّه يستحيل استمرارها في الوجود

لأنها تنظر إلى الإنسان نظرة أحادية الجانب فتصطدم بأعمق ما في طبيعته. وكأن علي عزت في ذلك الوقت المبكر كان يتنبأ بانهيار النظم الشيوعية قبل أن يبدأ الزلزال الذي اكتسحها بوقت طويل.

يمضي (علي عزت) ليكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط بين السلطة المستبدة وبين نوعين مختلفين من الناس يسميهم «الأتباع والهراطقة». فهناك علاقة توافق وانسجام بين الأتباع الذين يعشقون التبعية والخضوع، وبين السلطة التي تحب أن يكون لها أتباع مخلصون لا يسألونها وإنما يصفقون ويستحسنون. ويعلق المؤلف على ذلك بقوله: «إنهم جميعاً متوافقون منسجمون كأنهم أجزاء من كل واحد». أما الهراطقة فإنه يتحدث عنهم كأنه يصف نفسه فيقول: "إنهم إناس أشقياء .. يتطلعون دائماً إلى شيء جديد .. قليلاً ما يتحدثون عن الخبز ولكن يتحدثون كثيراً عن الحرية .. يتحدثون عن السلام قليلاً وعن الشخصية الإنسانيّة كثيراً. إنهم لا يقبلوا فكرة أن الملك يمنحهم مرتباتهم وإنما على العكس يعتقدون أنهم هم الذين يطعمون الملك .. هؤلاء هم الهراطقة الخارجون .. لا يحبون السلطة ولا تحبهم السلطة .. في الأديان يُوقّر الإمعات الأشخاص .. والسلطات .. والأوثان.. أما عشّاق الحرية فإنهم لا يمجدون إلا الله".

ولد علي عزت سنة 1925 في مدينة «بوسانا كروبا» في شمال غرب البوسنة، وقد أصبحت هذه المنطقة الآن – وقت كتابة المقال – تحت الاحتلال الصربي. واسم عائلته بجوفيتش معناه الحرفي «ابن عزت بك» وكلمة «بك» لقب شرفي موروث من الدولة العثمانية كان يمنح لمن قدم خدمة مرموقة لبلاده. وعلي عزت من أسرة مسلمة عريقة في البوسنة. تعلم في سراييفو والتحق بمدرسة تسمى «جمنازيوم» وهي مدرسة ثانوية تتبنى منهجاً أكاديمياً على غرار المناهج الألمانية، ويتميز النظام المدرسي فيها بالدقة والصرامة.

جماعة الشبان المسلمين:

في ذلك الوقت كانت البوسنة والهرسك جزءاً من مملكة تحكمها أسرة لبرالية. ولم يكن التعليم الديني جزءاً من المناهج المدرسية. وكان علي عزت – وهو لا يزال شاباً ناشئاً– واعياً بأهمية أن يتعرف على دينه ويقرأ فيه قراءة مستفيضة فاتفق هو وبعض زملائه في المدرسة أن ينشئوا نادياً مدرسياً للمناقشات الدينية سموه «ملادي مسلماني» أي الشبان المسلمين .. وكثير من زملاء علي عزت وأصدقائه ينتمون إلى هذه الفترة المبكرة من حياته.

تطورت جماعة «الشبان المسلمين» فيما بعد فلم تقتصر في نشاطها على الاجتماعات والمناقشات وإنما امتدت إلى أعمال تعليمية وخيرية، وأنشئ بها قسم خاص بالفتيات

المسلمات .. واستطاعت الجماعة أثناء الحرب العالمية الثانية أن تقدم خدمات فعالة في مجال إيواء اللاجئين ورعاية اليتامى والتخفيف من ويلات الحرب .. وإلى جانب هذه الأنشطة تضمن برامج الجماعة برنامجاً «لبناء الشخصية». وكانت عضوية الجماعة تجتذب طلاباً من المدرسة الثانوية ومن جامعة سراييفو. ومن الثابت أن اتجاهات الجماعة وتطورها نحو التكامل والنضوج كان نتيجة سعيها المستمر لتحسين نفسها، ومحاولة الاستفادة في عملها بالمعرفة التي توصلت إليها من خلال تحليلاتها واجتهاداتها الخاصة إلى جانب تأثرها بأفكار أخرى جاء بها بعض الطلاب البوسنيين الذين تعلموا في جامعة الأزهر بالقاهرة واتصلوا بمنظمات إسلامية هناك تعلموا منها أن الإسلام إيمان وعمل .. دين ودنيا.. وأنّه أسلوب حياة بقدر ما هو طريقة في التفكير. وسنجد هذه الأفكار تتطور عند علي عزت في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" حيث يعالجها بمنهجه الخاص في إطار فلسفي.

كانت مجموعة الشباب المتعلم الدينامي الملتزم بفكر الإسلام وأخلاقياته تحفزهم رغبة قوية لإيقاظ مجتمعهم وتخليص فكره من كثير من المعتقدات الخاطئة التي كان يظن أنها من الدين ولكنها في الحقيقة لا تستند إلى أي أساس من القرآن أو السنّة النبوية الصحيحة. وهي معتقدات سكت عنها رجال الدين الرسميون أو ساهموا في ترويجها لقلة فقههم في الدين. وبسبب ذلك، ولاسيما أخرى تتعلق بعجزهم عن مواجهة تطورات الحياة الحديثة بالفهم والمعالجة المستنيرة، كانت صلة علي عزت وصحبه بعلماء الدين الرسميين صلة محدودة يشوبها كثير من عدم الثقة بأهليتهم في أن يكون لهم دور فعال في إنهاض المسلمين وتنويرهم وتخليصهم من كبوة الجهالة والارتكاس في الخرافات.

ولكن تبين للشبان المسلمين فيما بعد أن بقاءهم واستمرار نشاطهم لن يتحقق إلا إذا كانت لهم مظلة رسمية تحميهم من مظنة أهل السوء والسلطان، فاقتربوا من «جمعية العلماء» وشجعهم على ذلك الشيخ (قاسم دوبراشا) الذي توفى سنة **1979**. وظل علي عزت محتفظاً بعلاقة ذات طابع عملي برجماتي مع «جمعية العلماء» وإن كان لا يأمل فيهم كثيراً خاصة وأن الدولة في ظل النظام الشيوعي كانت تتدخل في اختيار رئيس الجمعية وتضع لها أطراً حديدية في مجال نشاطاتها العامة. وقد انعكس هذا على فكر علي عزت الذي كان لا يؤمن بقدرة المؤسسات الدينية الرسمية على إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية إيجابية في مجتمعاتها. ويظهر موقفه هذا بوضوح في انتقاده لهذه المؤسسات، لعل أقواها تعليقه على حياة وأفول كل من الثورة والدين حيث يقول: "إن كلاً من الدين والثورة يولدان في مخاض من الألم والمعاناة، ولا تدوم حياة الدين والثورة بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحققا يبدأ الموت يتسرب إليهما ..

ذلك لأن الدين والثورة – في مرحلة تحققهما في الواقع العملي – يقيمان لهذا الغرض مؤسسات .. هذه المؤسسات هي نفسها التي تقضي عليهما في نهاية الأمر .. فالمؤسسات الرسمية لا هي ثورية ولا هي دينية".

أما جماعة الشبان المسلمين فكانت منظمة عفوية حية ظلت مجالاً متطوراً يتدرب فيها أجيال من الشباب المسلم وينمون في إطارها قدراتهم الفكرية والعملية.

التحق علي عزت بكلية القانون في "جامعة سراييفو"، وظل مستمراً في عضويته بلجنة الشبان المسلمين. وفي أبريل 1941م استولى جيش "هتلر" على يوغسلافيا فأحل فيها مكان الملكية جمهورية كرواتية فاشستية. وكانت جمعية الشبان المسلمين تلتزم بسياسة خاصة تحرّم على أعضائها الالتحاق بحركة «الأستاشا» النازية الموالية للألمان، ولهذا السبب عندما تقدموا للسلطات الحكومية الجديدة لتسجيل جمعيتهم رفضت هذه السلطات طلبهم.

كانت اتجاهات جماعة الشبان المسلمين – منذ وقت مبكر في حياتها – اتجاهات واضحة وثورية .. فقد ورد في مقال لها نشر سنة 1942م بأن الإسلام ليس ديناً فقط وإنما هو أيديولوجية عالمية يتضمن شؤوناً اجتماعية وأموراً تتعلق ببناء الدولة وسياستها .. وقد نشر هذا المقال في مجلة "جمعية العلماء" التي كانت تحمل عنوان «الهداية» ولم يشأ صاحب المقال أن يذكر اسمه وإنما اكتفى بتوقيع (طالب طب من الشبان المسلمين). وكان وصف الإسلام بالأيديولوجية العالمية في ذلك الوقت المبكر يدل على توجهات الجماعة وتبنيها لفكرة إسلامية سياسية نجد صداها واضحاً في كتاب علي عزت الذي نحن بصدده، كما نراها بصورة ممركزة في كتاب صغير آخر له بعنوان "الإعلان الإسلامي".

وتدلنا دراسة فكر وحركة الشبان المسلمين في البوسنة على أن أفكار هذه الجماعة كانت مزيجاً من تحليلاتهم واجتهاداتهم الخاصة مع تأثيرات خارجية سبق أن ألمحنا إليها.

وتتضح حيوية هذه الجماعة في اتجاهها نحو تعميق فكرها ورغبة أعضائها في الانفتاح على الفكر العالمي، فكانت لهم خطط منظمة لتعلم اللغات الأوروبية. وقد اشتملت قراءاتهم على مؤلفات «محمد أسد» في الإسلام باللغة الألمانية ضمن قراءات أخرى كثيرة. وكان من عادتهم أن يجتمعوا ليقرأوا معاً ما يجري على الساحة في الأوضاع السياسية بالعالم الإسلامي. ومن خلال كتابات محمد أسد عرفوا كثيراً عن الحركة الإسلامية في باكستان وكانت تحمل في طياتها أملاً في وقت من الأوقات. وقد أشار إليها علي عزت في كتاباته وتعرض لبعض جوانبها السلبية بالنقد في كتابه "الإعلان الإسلامي".

وفي هذا المجال نذكر أن اهتمام علي عزت بتعلّم اللغات الأوروبية لم يقتصر على اللغة الألمانية فحسب وإنما امتد ليشمل اللغتين الفرنسية والإنجليزية فقد كان حريصاً – فيما

يبدو – على أن يتصل بالفكر الغربي في منابعه وبلغته الأصلية. ويظهر هذا واضحاً في ثقافته الواسعة التي انعكست في كتاباته كما يظهر في العدد الهائل من المراجع التي اتصل بها خلال بحثه لموضوع كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» وتشتمل على موضوعات متنوعة في الفلسفة والأخلاق والقانون والفنون والعلوم الطبيعية وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجريمة والأدب والشعر والتاريخ والأديان.

الصراع مع النظام الشيوعي:

انتهت الحرب العالمية سنة 1945م، وخرج «جوزيف بروز تيتو» وحزبه الشيوعي من أنقاض الحرب ليعلنوا سيطرتهم على السلطة، ويؤسسوا دكتاتورية النظام الشيوعي في يوغسلافيا. أما بقية المنظمات غير الشيوعية فقد ألغيت أو اخترقت. وحوكم قادة المسلمين البارزين وأعدم بالفعل كثير منهم. وتم اعتقال ألفين من أعضاء جماعة الشبان المسلمين فأرسل عدد منهم إلى معسكرات العمل الشاق بدون محاكمة، وحوكم بعضهم الآخر محاكمات صورية ثم أودعوا السجون. واختفى بقية أعضاء الجماعة تحت الأرض حيث أصدروا صحيفة سرية سموها "مجاهد"، وسعى بعضهم للحصول على تدريبات عسكرية تحسباً من أن تقوم السلطات الشيوعية بتصفيات جديدة بين المسلمين. وفي سنة 1949 انقض عليهم تيتو مرة أخرى بقسوة أكبر. وليس واضحاً تمام إذا كان علي عزت قد اعتقل في التطهير الأول أو الثاني ولكن الثابت أنّه ظل مسجوناً حتى أفرج عنه سنة 1954م وكان عمره في ذلك الوقت 29 سنة.

ورغم كل ما عاناه علي عزت في السجن على يد النظام الماركسي إلا أن هذا الظلم الذي وقع على شخصه لم يمنعه من أن يكون منصفاً لهذا النظام في نقطتين محدودتين: ففي سياق حديثه عن إفلاس الفكر الماركسي تحت وطأة الدكتاتورية والإرهاب أشار علي عزت إلى أن الإضافة الوحيدة التي تستحق الذكر في الفكر الماركسي بعد "لينين" جاءت من يوغسلافيا متمثلة في فكرة الإدارة الذاتية. وفي ذلك يقول: «.. إنها تعتبر طريقاً متميزاً .. فهي تعني تحرراً من النمذجة والمذهبية المغلقة التي وضعت فيها الماركسية الأغلال على نمو فكر الطبقة العاملة». أما النقطة الثانية فتتمثل في موقفه المؤيد لحركة عدم الانحياز، وكانت يوغسلافيا إحدى أربعة دول تتزعم هذه الحركة، وقد رأى علي عزت في انضمام الدول الإسلامية إلى هذه الحركة دليلاً على رفضها التبعية للشرق أو الغرب، واتخاذها موقفاً وسطاً بين الكتلتين المتطرفتين المتصارعتين وهو يرى أنّه موقف يتفق تماماً مع طبيعة الإسلام وروحه التي تنبذ التطرف وتكرس الوسطية.

عمل علي عزت بعد خروجه من السجن محامياً متخصصاً في القانون التجاري لدى إحدى الشركات. وفي غضون ذلك نشأت بينه وبين «حسين دوزو» علاقة. وكان «حسين دوزو» قد تخرج من جامعة الأزهر وعينته الحكومة اليوغسلافية رئيساً "لجمعية العلماء" وكان حريصاً من جانبه على أن يقيم حواراً بين العلماء وبين المثقفين المسلمين. وقد أتيح لعلي عزت من خلال هذه العلاقة أن ينشر مقالاته في مجلة الجمعية المسماة "تاكفين" **Takvin** على مدى عقد السبعينات فتناول في مقالاته موضوعات في الثقافة والأخلاق مستخدماً اسماً مستعاراً مكوناً من ثلاث حروف «ل. س. ب» وهي الحروف الأولى من أسماء أبنائه «ليلى وسابينا وبكر». وكان لهذا الانفتاح على جمعية العلماء أهمية كبرى فقد استطاع علي عزت إيصال فكره لخمسين ألف مسلم من قراء المجلة.

وفي سنة 1981م قام ابنه «بكر» بجمع سلسلة من مقالات أبيه في كتيب وضع له عنواناً هو «الإعلان الإسلامي». وقد أثار هذا الكتاب ضجة إعلامية كبيرة في يوغسلافيا، واستغل استغلالاً ظالماً ضد مؤلفه، وقد كان ولا يزال أداة اتخذها الصرب والكروات لتحريض الغرب على دولة «البوسنة والهرسك» وعلى رئيسها وكانت التهمة المعلنة هي "الأصولية الإسلامية".

وجاء ذلك متسقاً مع اتجاه الغرب لخلق عدو جديد بدلاً من الشيوعية التي انهارت، فوجد في الإسلام أيديولوجية مؤهلة لهذه الوظيفة، وهي فكرة تروج لها الصهيونية العالمية وتجد لها صدى واسعاً في دوائر الإعلام الغربي بل تجد أنصاراً أكثر تحمساً في بلاد المسلمين من العلمانيين المتطرفين والماركسيين القدامى تؤازرهم السلطات الحاكمة ملتمسة لنفسها شرعية ما، بعد أن فقدت مصداقيتها لدى الجماهير. ولعل هذا يفسر الموقف السلبي لحكومات الدول المسلمة والموقف الغربي المنحاز إلى العدوان الصربي الكرواتي ضد البوسنة وضد رئيس جمهوريتها.

عندما صدر كتاب «الإعلان الإسلامي» كانت يوغسلافيا محكومة بمجلس مكون من رؤساء جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي، وكان رد الفعل بإزاء الكتاب شديد الحدة فألقي القبض على مؤلفه ووجهت إليه تهمة السعي لإحياء جماعة الشبان المسلمين ضمن اتهامات أخرى. وكان توجيه الاتهام في حد ذاته مهزلة لأن محتويات الكتاب كلها سبق نشرها على حلقات خلال عشر سنوات في مجلة مسموح بها من قبل السلطات الحكومية، وليس في الكتاب شيء جديد. كانت السلطات قد ألقت القبض مع علي عزت على مجموعة أخرى من أصدقاءه المثقفين بينهم سيدة، ووجهت إلى الجميع تهمة العمل ضد نظام الدولة وأمن شعبها والسعي

لتحويل البوسنة والهرسك إلى دولة إسلامية. ولم تكن هناك أي أدلة حقيقية تدعم هذا الاتهام سوى كتاب «الإعلان الإسلامي» الذي لم يرد فيه ذكر لاسم يوغسلافيا أو البوسنة كما أشرنا من قبل.

أُجريت محاكمة صورية لعلي عزت وصحبه سنة 1983م، وسمح لأصدقاء المتهمين وأسرهم بحضور الجلسة الأولى فقد استكملت المحاكمة بعد ذلك في جلسات سرية سريعة. ويذكر شهود الجلسة الأولى أن علي عزت قام للدفاع عن نفسه فلم ينكر أنّه مؤلف الكتاب وأنّه مسئول عن محتوياته. وكانت حجته أن كتاباته كانت موجهة إلى المسلمين بصفة عامة وأنّه من شأن المسلمين في البلاد التي يشكلون فيها الأغلبية العظمى من السكان أن يختاروا – إذا شاءوا – نظاماً إسلامياً للحكم ولا يصح عندئذ أن تتدخل الدول الغربية ضد هذه الرغبة.

ولم تلتفت المحكمة لدفاع علي عزت فأصدرت حكمها عليه مع زملاءه بالسجن لمدة 14 سنة.

في تلك الأثناء طارت شهرة علي عزت في أنحاء يوغسلافيا وأصبح حديث الناس في بيوتهم. وهكذا أدخل علي عزت السجن للمرة الثانية بتهمة باطلة، وكأن الأقدار كانت تصنعه بطريقة خاصة وتهيئه لدور صعب ينتظره في المستقبل القريب.

انهيار يوغسلافيا وبداية الصراع:

خلال وجود علي عزت بالسجن بدأ الزلزال يجتاح العالم الشيوعي في أوروبا الشرقية وتحققت نبوءته بانهيار النظم الاشتراكية. وبرزت على أنقاض هذه النظم نزعات قومية وعرقية كانت مكبوتة في يوغسلافيا، أخذت تعمل على تفكيك الوحدة الهشة التي صنعها تيتو وحافظ عليها مدة حياته بالحيلة والدهاء. وكان لظهور رؤساء جمهوريات مثل "سلوبودان ميلوسوفيتش" الصربي و«تودجمان» الكرواتي من أصحاب النزعات الفاشية العرقية من الأسباب الأساسية التي أدّت إلى الانهيار السريع في يوغسلافيا، فانشقت سلوفينيا ثم كرواتيا وأعلنا استقلالهما معاً في يوم 25 يونيو سنة 1991. وفي صباح 26 يونيو هاجمت القوات الصربية كرواتيا، وكان بإمكانها سحق كرواتيا بآلتها العسكرية الرهيبة التي انفردت بها ميراثاً من الدولة اليوغسلافية السابقة، ولكنها اضطرت لإيقاف العمليات العسكرية عندما أدركت وتأكدت أن الدول الأوربية وبالأخص ألمانيا سوف تتدخل بالقوة العسكرية للدفاع عن كرواتيا.

كانت موجة التغيير التي بدأت تجتاح يوغسلافيا عاملاً هاماً في استرخاء قبضة السلطة المركزية عن الجمهوريات، ومن ثم تهيأت الظروف لإعادة محاكمة علي عزت وصحبه

حيث ألغت محكمة سراييفو الحكم الذي صدر عليهم بالسجن وأفرج عنهم 1989 بعد أن أعادت المحكمة لهم اعتبارهم.

بدأت مرحلة جديدة في حياة علي عزت فقد كان دوره السابق هو دور المفكر الثائر ورجل الأخلاق والمواقف، ولكنه أصبح الآن أمام مرحلة جديدة تتطلب منه دوراً سياسياً قيادياً، خصوصاً وأن كل الدلائل تشير إلى مخاطر كبرى وأزمات مقبلة تلوح في الأفق. ولذلك أنشأ علي عزت حزباً جديداً باسم «حزب العمل الديمقراطي» استطاع به هزيمة الحزب الشيوعي وتولى رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك اعتباراً من نوفمبر 1990م.

كانت القيادة البوسنية تشعر بالقلق إزاء الصراع الذي اندلع بين صربيا وكرواتيا من أن يؤثر على التركيبة العرقية المتداخلة من المسلمين والصرب والكروات في أنحاء جمهورية البوسنة والهرسك، ومن ثم تنجرف إلى حرب أهلية كتلك الحروب السابقة التي خرج منها المسلمون بأكبر نصيب من الويلات والمآسي. ولذلك كان على القيادة البوسنوية أن تحدد موقفها بعد انفصال سلوفينيا وكرواتيا وتفجر الصراع العسكري في المنطقة.

<u>جهود علي عزت في تجنب الصراع العرقي</u>:

لابد هنا من تقرير حقيقة هامة وهي أن المسلمين بقيادة علي عزت لم يستهدفوا الانفصال على أي وجه. فلم يكن لديهم أي اعتراض على قيام نوع من الاتحاد تتوازن فيه القوى ويرضى به الجميع وتتحقق فيه حرياتهم وحقوقهم الإنسانيّة ولكنهم بإزاء الصراع الذي اندلع في المنطقة بالفعل لم يعد أمامهم سوى أن يختاروا لأنفسهم بين ثلاثة طرق كل طريق منها يؤدي إلى الصراع وكل منهم ينطوي على مخاطره ومحاذيره: فإما أن ينضموا إلى الحرب وتحت مظلة الاتحاد اليوغسلافي الجديد الذي يدعون إليه وهو في الحقيقة مشروع صربيا الكبرى الذي يقوده ويخطط له «سلوبودان ميلوسوفيتش»، وبذلك يتعرض المسلمون لانتقام الكروات، وإما أن ينظموا إلى الكروات ويتعرضون لانتقام الصرب، وهم في كلتا الحالتين لا يعرفون مصيرهم بعد انتهاء الصراع، وإن كانوا على يقين أنهم كانوا يبوءون بأكبر الخسائر في مثل هذه الصراعات. ويتبلور هذا الموقف العصيب في كتاب من تأليف الصحفي البريطاني "مارك تومسون" بعنوان The Paper House ينسب فيه إلى علي عزت قوله: "إن تضطر إلى الاختيار بين الرئيس الكرواتي «تودجمان» وبين الرئيس الصربي «ميلوسوفيتش» كأنك تختار بين سرطان الدم أو سرطان الدماغ". ولذلك لم يبق أمام المسلمين سوى الطريق الثالث وهو الاستقلال.

يتألف شعب البوسنة والهرسك من ثلاثة عناصر أساسية من السكان: المسلمون هم الأغلبية ثم الصرب والكروات. ولقد عاشت هذه العناصر الثلاثة على مر العصور في تآلف

نسبي اعتبره الكتاب الأوروبيون نموذجاً لا مثيل له في منطقة البلقان بأسرها. ولذلك رأى علي عزت أن «جمهورية البوسنة والهرسك» بتركيبتها العرقية وامتزاجها التاريخي يمكن أن تكون منطقة سلام وجسراً تعبر عليه محاولات التقريب والوفاق بين العدوين اللدودين الصرب والكروات. ولهذا قدّم علي عزت اقتراحاً لرؤساء جمهوريات يوغسلافيا في اجتماعهم سنة 1991 بمشروع حل وسط ينهي الأزمة ويمنع تفجر الموقف المتأزم بين سلوفينيا وكرواتيا من ناحية وبين الصرب من ناحية أخرى. وقد تضمن هذا المشروع النقاط التالية:

- ✶ **أن تتحد جمهوريتا الصرب والجبل الأسود في اتحاد فيدرالي خاص بها.**
- ✶ **تتحد جمهوريتا كرواتيا وسلوفينيا في اتحاد كونفدرالي.**
- ✶ **تتحد جمهورية البوسنة ومقدونيا في إطار اتحادي يتفقان على صيغته فيما بعد.**
- ✶ **إيجاد إطار يوغسلافي يضم الاتحادات الثلاثة، بشرط أن تتمتع جميع الجمهوريات في داخله بالسيادة والاستقلال.**

وبذلك يضمن المشروع بقاء الكيان اليوغسلافي. وقد حظي هذا المشروع بتأييد المجموعة الأوربية باعتباره الحل الوحيد الذي يمنع الانزلاق إلى مخاطر الحرب الأهلية. ولكن رفضته صربيا لأنه يعوق تطلعاتها إلى الهيمنة والتوسع، وبالأخص القضاء على دولة البوسنة والهرسك وإنهاء الوجود الإسلامي بها. وعلى أثر ذلك أجرى علي عزت استفتاءً عاماً على استقلال جمهورية البوسنة عن يوغسلافيا وصوّت الشعب البوسني بأغلبية 70% لصالح الانفصال والاستقلال، وتم الاعتراف بالدولة الجديدة من المجتمع الدولي. وعلى الفور بدأت الصرب حرب الإبادة والتطهير العرقي الذي كانت تخطط له من قبل. ولا تزال سلسلة المأساة تتوالى حلقاتها – وقت كتابة المقال – .

2- كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب":

كان علي عزت يدرك منذ وقت مبكر المخاطر المحدقة بالأجيال الجديدة وقد حرموا من أي تعليم إسلامي في مجتمع دينه الرسمي الإلحاد كان يعتبر اقتناء المسلم لمصحف جريمة يستحق عليها العقاب، لذلك كان علي عزت معنياً بتوفير أدوات مناسبة عصرية لتعميق الفكر الإسلامي عند الشباب المسلم فعكف على بحث وتأليف كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» كان الهدف منه كما ذكر في مقدمته: «محاولة ترجمة الإسلام إلى اللغة التي يتحدث بها الجيل الجديد ويفهمها» وعندما أوشك على إنهاء الكتاب أودع السجن كما سبق أن أشرنا فلم يتمكن من نشره آنذاك. ولكن استطاع صديق له هو «حسن كراجيتش» أن يهرّب أصول الكتاب خارج يوغسلافيا حيث قام باستكمال الاستشهادات المرجعية للكتاب وترجمته إلى اللغة

الانجليزية، ونشر أول طبعة لـه في الولايات المتحدة سنة 1984، ثم أعيد طبع الكتاب مرة أخرى سنة 1989 وهي الطبعة التي قمنا بترجمتها إلى العربية.

ليس كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» كتاباً بسيطاً يمكن للقارئ أن يتناوله مسترخياً أو يقتحمه من أي موضع فيقرأ صفحة هنا وصفحة هناك ثم يظن أنّه قد فهم شيئاً، إنما على القارئ الجاد أن يحتشد له ويتهيأ للدخول في عالم فكري واضح الثراء متميز بمنهج تحليلي دقيق، فالمؤلف يضع كل فكره تحت مجهره الفاحص، وهو في ذلك دائب السعي للوصول إلى حقائق الأشياء وجوهرها. والكتاب إلى جانب ذلك يتمتع بأسلوب أخّاذ وقوّة منطق تعكس ثقافة مؤلفه العميقة. فمؤلف الكتاب متمكن من الثقافتين الإسلامية والغربية معاً. ولا ننسى أنّه أوروبي بالمولد والنشأة والتعليم، ساعدته قدراته اللغوية أن ينفذ إلى أعماق الفكر الغربي في لغاته الأصلية (الألمانية والإنجليزية والفرنسية) إلى جانب لغته البوسنية (الصربوكرواتية).

العدمية احتجاج على غياب الإلوهية:

لقد استوعب علي عزت الفكر الغربي ولكنه لم يغرق فيه ولم يجهل أو يتجاهل ما فيه من جوانب القوة ولكنه في نفس الوقت – وهو ينظر من داخله – استطاع أن يدرك فيه مواطن الضعف والقصور والتناقض. كما استطاع بمنهجه التحليلي المقتدر أن يكشف لنا عن عناصر دينية كامنة في بعض المذاهب الفلسفية حتى تلك التي نظن بل يظن أصحابها أنها أبعد ما تكون عن الدين مثل فلسفات العدميين والوجوديين والعبثيين. فعلي عزت يرى أن العدمية تمرد على الحضارة ذات البعد الواحد التي أخرجت الإنسان من حسابها فلم يعد له مكان فيها. فالقلق البدائي والنظر فيما وراء الموت والبحث المضني عن طريق خارج هذه الضائقة المحيطة كلها هموم مشتركة بين العدمية والدين. يقول علي عزت: «إن العدمية ليست إنكاراً للإلوهية بقدر ما هي احتجاج على غيابها .. والعدمية عند «بكت» احتجاج على غياب الإنسان أو احتجاج على حقيقة أن الإنسان غير ممكن وغير متحقق .. هذا الموقف ينطوي على فكرة دينية لا فكرة علمية عن الإنسان وعن العالم. فالعلم يزعم أن الإنسان ممكن ومتحقق ولكننا في التحليل النهائي نجد أن ما هو متحقق في نظر العلم شيء لا إنسانية فيه» ثم يمضي قائلاً: «لأن المادية ترفض الغائية في العالم فإنها تتخلص بذلك من مخاطر العبثية والتفاهة .. فعالم المادية وإنسانها لهما غايات عملية ووظيفية .. لتكن وظيفة حيوانية .. لا يهم». ويعلق علي عزت على عبارة «سارتر» التي يصف فيها الإنسان بأنه عاطفة تافهة فيقول: «إنها عبارة دينية بمنطقها وبروحها معاً .. إنها تتضمن أن الإنسان والعالم ليس بينها تناغم أو تطابق .. وهذا الموقف المتطرف تجاه العالم المادي كان هو بداية جميع

الأديان». ثم يمضي قائلاً: "إن التفاهة عند "سارتر" والعدمية عند "كامي" يفترضان البحث عن هدف ومعنى وهو بحث يختلف عن البحث الديني في أنّه ينتهي عندهما بالفشل .. فالعدمية خيبة أمل بسبب غياب الخير من العالم، فكل شيء تافه وعدم ما دام الإنسان يموت إلى الأبد .. إن الفلسفة العدمية تعبر عن القلق، والقلق بجميع درجاته – فيما عدا نتيجته – هو قلق ديني .. الإنسان غريب في هذا العالم سواء عند العدمية أو في نظر الدين .. والفرق أن العدمية تعتبر الإنسان ضائعاً بلا أمل وأما الدين فبه أمل في الخلاص".

ويؤكد علي عزت أن أفكار «ألبير كامي» لا يمكن فهمها إلاّ إذا اعتبرنا صاحبها مؤمناً مخيب الرجاء، ويستشهد على ذلك بفقرة من «كامي» يقول فيها: "في عالم خبا فيه الوهم فجأة وانطفأ الضياء يشعر الإنسان بالاغتراب .. فلا ذكريات هنالك ولا وطن مفقود .. ولا أمل في الوصول إلى أرض موعودة .. كل شيء جائز طالما أن الإنسان يموت وأن الله غير موجود". يقول علي عزّت "إن هذه العبارة الأخيرة ليس بينها شيء مشترك وبين الإلحاد القاطع اليقيني الذي نصادفه عند المفكرين العقلانيين، إنما على العكس هو صرخة صامتة لروح أجهدها البحث عن الله ولم تجده .. إنها إلحاد البائس".

هذا موقف إنساني يتكرر على مر العصور والدهور كلما أمعن الإنسان النظر في سر حياته ومصيره دون أن يتصل بمصدر هداية يدله على طريق الخلاص، وفي هذا تكمن الحكمة في الآية القرآنية التي ساقها علي عزت لتلقي ضوءاً على هذا المأزق وتوجه النظر إلى طريق الخروج منه: [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ].

يتألف كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» من أحد عشر فصلاً منقسمة إلى قسمين، يشتمل القسم الأول على ستة فصول ويحمل عنواناً عاماً هو (نظرات حول الدين)، ولكنه يتناول موضوعات وقضايا أساسية في الفكر الإنساني كالخلق والتطور، والثقافة والحضارة، والظاهرة الفنية، والأخلاق، والتاريخ، والدراما والطوبيا. ويدهش القارئ: لم إذن اختار المؤلف لهذه الفصول عنواناً جامعاً كهذا..؟

هل يمكن قيام أخلاق بلا إله؟

هنا تكمن عبقرية المؤلف وتتجلى قدرته التحليلية ومنطقه القوي، حيث ينكشف لنا بعد التحليل وجود عناصر دينية أصيلة في نسيج الثقافة والفن والأخلاق، بل يرى علي عزت أن هذه الموضوعات تدور في حقيقتها على محور ديني ولا يمكن أن تنفصم عنه. ويرينا كيف أن محاولات بعض الفلاسفة إقامة أخلاق على مبادئ أخرى غير دينية كالمنفعة وغيرها قد باءت بالفشل، ولذا يتساءل قائلاً: هل يمكن وجود أخلاق بلا إله؟ خصوصاً وأننا نصادف في حياتنا اليومية ملحدين على أخلاق ورجال دين لا أخلاق لهم!! ويمضي المؤلف يطوف بنا في

أعماق الفكر الإنساني وفي تجارب الأمم ماضيها وحاضرها، لنرى أن أشد الأنظمة إلحاداً ومادية لم تتمكن من بناء مجتمع ملحد كامل الإلحاد. وضرب على ذلك مثلاً بالنظم الماركسية التي تقطع مبادئها عند ماركس ولينين بأن الأخلاق والإنسانيّة والدين كلها أوهام يجب القضاء عليها، ومع ذلك لم يفلح الماركسيون في الالتزام بهذه المبادئ عند التطبيق العملي لأنها تصطدم بجوهر الحياة الإنسانيّة وفي ذلك يقول علي عزت: «لقد كان ماركس يستطيع وهو قابع في مقعده بالمكتبة البريطانية أن يقول بأنه لا وجود للأخلاق ولكن الذين حاولوا تطبيق أفكار ماركس وأن يقيموا مجتمعاً على أساسها لم يستطيعوا أن يعلنوا هذا الكلام بنفس السهولة. فلكي يقيموا مجتمعاً ويحافظوا على بقائه كان عليهم أن يطلبوا من الناس درجة من المثالية ربما أكثر مما طلب أي نبي من قومه باسم الدين. ولهذا كان عليهم أن يتناسوا بعض المسلمات المادية الواضحة». وهكذا يؤكد علي عزت أن الإلحاد إذا وضع موضع الممارسة وهو يحاول بناء مجتمع يضطر صاغراً إلى المحافظة على الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية، ولكنه في نفس الوقت لا يملك الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقي أو الدفاع عنه إذا وضع موضع التساؤل أو الشك. هنالك يبدو الإلحاد عاجزاً تماماً أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو اللاأخلاقية، فعندما يقولون: "إذا كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غداً لا محالة وبلا عودة إلى حياة أخرى فلم لا أعيش اليوم كما يحلو لي بدون قيد أو التزام ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؟ هنا لا نجد إجابة منطقية عند أصحاب المذاهب المادية والإلحادية .. وسنجد أن الذي يترسب في وعي الناس هو المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب .. وتضطر الدولة الملحدة أن تبقى عليها بدافع الضرورة المحضة".

وهكذا ننتهي إلى نتيجتين .. الأولى: أن الأخلاق كمبدأ لا توجد بلا دين بينما الأخلاق العملية يمكن أن توجد في غياب الدين ولكن يظل وجودها ضعيفاً واهناً لانفصالها عن المصدر الذي منحها قوتها المبدئية؛ والنتيجة الثانية: أنّه لا يمكن بناء نظام أخلاقي على الإلحاد .. وفي كلتا الحالتين يظل النظام الأخلاقي الموروث مناقضاً للأيديولوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها.

التمييز بين الثقافة والحضارة:

يبدو من دراسة علي عزت لموضوع الثقافة والحاضرة أن هناك تصادماً بينهما، وأن الحضارة الرأسمالية والحضارة الشيوعية كلاهما معاد للثقافة بطبيعتهما وبدرجات مختلفة ذلك أن الثقافة في جذورها الأولى صدرت من أصل ديني، وأن هذه الجذور تمتد من الماضي

السحيق إلى ما يسميه علي عزت «بالتمهيد السماوي»، ويشير إلى ذلك السيناريو القرآني الذي جمع الله فيه الأرواح التي قُدر لها أن تولد – (كما يقول الفلاسفة المسلمون «في عالم الذرّ») – وسألهم: «ألست بربكم .. قالوا بلى..» هنالك علم الإنسان أنّه مختلف عن بقية الكائنات وأنّه صاحب مسؤولية وأنّه حر الاختيار.

ويطوّر المؤلف موضوع الصدام بين الثقافة والحضارة بطرق مختلفة. فالثقافة عنده «هي تأثير الدين على الإنسان وتأثير الإنسان على الإنسان، بينما الحضارة هي تأثير العقل على الطبيعة .. تعني الثقافة الفن الذي يكون به الإنسان إنساناً أما الحضارة فهي فن يتعلق بالوظيفة والسيطرة وصناعة الأشياء تامة الكمال .. الحضارة هي استمرارية التقدم التقني وليس التقدم الروحي .. كما أن التطور الداروني هو استمرارية للتقدم البيولوجي وليس التقدم الإنساني.

الثقافة شعور دائم الحضور بالاختيار وتعبير عن الحرية الإنسانيّة وخلافاً لما تذهب إليه الحكمة الإسلامية بضرورة كبح الشهوات، يحكم الحضارة منطق آخر جعلها ترفع شعاراً مضاداً "أخلق شهوات جديدة دائماً وأبدا". الحضارة تُعلِّم أما الثقافة فتنوِّر، تحتاج الأولى إلى تعليم والثانية إلى التأمّل.

تملك الثقافة الفن وتملك الحضارة العلم. تقف الثقافة بمعنى من المعاني خارج إطار الزمن والتاريخ، فهي معنية بموضوع واحد هو: لِمَ نحيا؟ أما الحضارة فهي إجابة على سؤال آخر دائم التغير وهو: كيف نحيا؟. وفي هذا المجال "يمكن تمثيل الحضارة بخط صاعد دائماً يبدأ من اكتشاف الإنسان للنار ماراً خلال طواحين الماء ثم عصر الحديد والكتابة، والآلة البخارية، حتى عصر الطاقة الذرية ورحلات الفضاء. أما الثقافة فهي بحث دائب يعود إلى الوراء ويبدأ من جديد. الإنسان هو موضوع الثقافة بأخطائه التي لا تتغير وفضائله وشكوكه وضلالاته .. وكلما تعمقنا في الوجود الداخلي للإنسان نرى معضلة دائمة تسعى إلى حل مستحيل".

هذه هي مجمل المجالات التي ناقش فيها علي عزت موضوع الاختلاف بين الثقافة والحضارة حيث ينتهي من مناقشاته وتحليلاته إلى أن الحضارة الحديثة قد أخفقت إخفاقاً بيّناً في سعيها لتحقيق السعادة الإنسانيّة المنشودة من خلال العلم والقوة والثروة. ويؤكد أنّه لابد من فهم هذه الحقيقة والاعتراف بها حتى يتسنى لنا مراجعة أفكارنا الأساسية التي لا تزال موضع قبول عام إلى الآن.. ويرى أن "أول فكرة يجب مراجعتها هي فكرة العلم الخاطئة عن الإنسان".

ولكن يحذرنا علي عزت أن نفهم أن نقده للحضارة دعوة لرفضها والانعزال عنها فالحضارة على حد قوله "لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك .. إنما الشيء الوحيد والضروري والممكن فهو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها .. فإن تحطيم الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنْسنة هذا العالم .. وهي مهمة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة".

إخفاق الأيديولوجيات الكبرى:

ويُرجع المؤلف إخفاق الأيديولوجيات الكبرى في العالم إلى نظرتها إلى الإنسان والحياة نظرة أحادية الجانب شطرت العالم شطرين متصادمين بين مادية ملحدة وكاثوليكية مغرقة في الأسرار «ينكر كل منهما الآخر ويدينه بلا أمل في لقاء»، وهكذا وجدنا الحضارة القائمة على العلم المادي من جانب، والدين القائم على الغيبيات من جانب آخر مضاد. ولكن الإسلام – كما يعرضه علي عزت – لا يخضع لهذه القسمة الجائرة. وتلك هي القضية الكبرى التي يعالجها علي عزت في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" حيث خصص لها القسم الثاني من هذا الكتاب.

الإسلام وحدة ثنائية القطب:

يرى علي عزت أنّه يستحيل تطبيق الإسلام تطبيقاً صحيحاً في مجتمع متخلف ففي اللحظة التي يتم فيها التطبيق الحقيقي للإسلام في مجتمع ما يكون هذا المجتمع قد بدأ يتخلى عن تخلفه ويدخل في مجال الحضارة.

ومن ثم يؤكد القرآن أن الله خلق الإنسان ليكون سيداً في الأرض وخليفة الله عليها.. وأن الإنسان في إمكانه تسخير الطبيعة والعالم من خلال العلم والعمل. ويقول علي عزت في موضع آخر: «إن إصرار القرآن على حق محاربة الشر والظلم ليس من قبيل التدين بمعناه الضيق، فمبادئ اللاعنف واللامقاومة أقرب إلى الدين المجرد .. وعندما أقر القرآن القتال بل أمر به بدلاً من الرضوخ للظلم والمعاناة لم يكن يقرر مبادئ دين مجرد أو أخلاق وإنما كان يضع قواعد سياسية واجتماعية». ويعلق على تحريم الخمر في الإسلام بقوله: "كان تحريم الخمر بالدرجة الأولى معالجة لشر اجتماعي وليس في الدين المجرد شيء ضد الخمر بل أن بعض الأديان استخدمت الكحول كعامل صناعي لاستحضار النشوة الروحية .. كالإظلام والبخور المعطّرة، وكلها وسائل تؤدي إلى هذا النوع من الخدر المطلب للتأمل الخالص .. ولكن الإسلام عندما حرّم الخمر سلك مسلك العلم لا مسلك الدين المجرد".

سرّ انحطاط المسلمين:

ويتساءل علي عزت: ما الذي أدّى إذن بالمسلمين إلى الانحطاط بالصورة التي نراها اليوم؟ ويجيب على تساؤله بقوله: "لقد انشطرت وحدة الإسلام ثنائية القطب على يد أناس

قصروا الإسلام على جانبه الديني المجرد فأهدروا وحدته وهي خاصيته التي ينفرد بها دون سائر الأديان .. لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد أو إلى صوفية فتدهورت أحوال المسلمين. وذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم وعندما يهملون دورهم في هذا العلم ويتوقفون عن التفاعل معه تصبح السلطة في الدولة المسلمة عارية لا تخدم إلاّ نفسها.. ويبدأ الدين الخامل يجر المجتمع نحو السلبية والتخلف، ويشكّل الملوك والأمراء والعلماء الملحدون ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والصوفية المغيبة، والشعراء السكارى – يشكلون جميعاً الوجه الخارجي للانشطار الداخلي الذي أصاب الإسلام".

العداء الغربي للإسلام:

وفي هذا المجال يلفت علي عزت النظر إلى أن عداء الغرب الحالي للإسلام ليس مجرد امتداد للعداء التقليدي والصدام الحضاري الذي وصل إلى الصراع العسكري بين الإسلام والغرب منذ الحملات الصليبية حتى حروب الاستقلال وإنما يرجع هذا العداء بصفة خاصة إلى تجربة الغرب التاريخية مع الدين وإلى عجزه عن فهم طبيعة الإسلام المتميزة. وهو يطرح لذلك سببين جوهريين وراء هذا العجز وهما: طبيعة العقل الأوروبي أحادي النظرة، وإلى قصور اللغات الأوروبية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية وضرب لذلك مثلاً بمصطلحات: الصلاة والزكاة والصيام والوضوء والخلافة والأَمّة، حيث لا يوجد ما يقابلها في المعنى باللغات الأوروبية. فالمصطلحات الإسلامية – كما يراها علي عزت – كالإسلام نفسه تنطوي على وحدة ثنائية القطب. ولهذين السببين – كما يقرر علي عزت – "أنكر الماديون الغربيون الإسلام باعتباره دين غيبيات أي (اتجاه يميني) بينما أنكره المسيحيون الغربيون لأنهم يرون فيه حركة اجتماعية سياسية أي «اتجاه يساري» .. وهكذا أنكر الغربيون الإسلام لسببين متناقضين".

ويرى المؤلف بحق أن الغرب إذا كان يريد فهم الإسلام فهماً صحيحاً عليه أن يعيد النظر في مصطلحاته التي تتعلق بالإسلام.

بهذا المنطق القوي والمنهج التحليلي المقتدر يكشف علي عزت عن تهافت الفكر الغربي وقصوره بل تناقضه في معالجته لموضوع الإنسان والحياة، ويرتفع بالفكر الإسلامي إلى مستواه العالمي الذي يليق به، ولا أجد في هذا المجال أصدق من شهادة «وودز ورث كارلسن» وهو مفكر أوروبي محايد لا ينتمي إلى دين المؤلف ولا إلى عشيرته حيث يقول معلقاً على كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»: (إن تحليله للأوضاع الإنسانيّة مذهل، وقدرته التحليلية الكاسحة تعطي شعوراً متعاظماً بجمال الإسلام وعالميته).